القرآن واللغة العربيّة

دلال عباس - المعهد العالي للدكتوراه - الجامعة اللبنانيّة

ملخّص البحث

بين اللغة العربيّة والقرآنِ عَلاقةٌ لن تنفصمَ عُراها أبدَ الدهر. لقد كانتِ اللغةُ العربيُّة قبل نزول القرآنِ وقبلَ تدوينهِ ونقْطِه وإعجامهِ كأخواتها الساميِّات الأُخرَ، محدودةَ الأفقِ، محصورةً داخل مِنطقةٍ جغرافيِّة محدودةٍ، لا تتعدّى حدود الجزيرةِ العربيِّة واليمنِ، وكانت شفويَّة، حتى القليل المُدوّن منها ما كان يُفهم إن لمْ يعضُدْه الحفظُ.

فما الذي فعلهُ القرآن باللغة؟

يهدف هذا البحثُ مستخدمًا المنهجين التاريخيّ والتحليليّ إلى الإجابةِ عن هذا السؤال، وتبيانِ الدور الذي أدّاه القرآن ولا يزالُ في نشرِ اللغةِ العربيِّة والمحافظةِ عليها، كونُ النصّ القرآنيّ كان -ولا يزال- النصَّ المعياريَّ إعجازًا وبيانًا ونحوًا وبلاغةً. كما يهدفُ إلى توضيحِ دورِ القرآنِ، في تحويلِ الثقافةِ من المرحلةِ الشفويِّة إلى مرحلةِ التدوين، وفي وحدةِ العربِ اللغويِّة إذ صقلَ لهجاتهم وصَهَرَها، مستشرفًا لغةً واحدةً، ماتت فيها استطالاتُ اللهجاتِ الأخرى وعيوبُها، وهذا هو حالُ الفصحى (لغة القرآنِ) اليوم... وكما وحَّد القرآنُ اللهجاتِ العربيَّة وهذَّبها ممّا فيها من حوشيِّ الكلام، وسَّع دلالاتِ ألفاظِها، وفوق ذلك كلِّه كان سببَ انتشارِها من خلال حركةِ الفتوح، وذيوعِها خارج الجزيرةِ العربيِّة على ألسنةِ الناسِ في الأقطار التي أظلّها الإسلام، وما آل إليه أمرُها في بلاد الشام والعراق ومصر والمغرب وإيران وغيرها. وسنبيّن كذلك أثرَ الاختلاطِ في البلدان المفتوحةِ في التطوّر اللغويِّ، ونشوءِ لغةِ التفاهم بين العربِ الفاتحين وسكّان البلادِالأصليّين، والتحدّيات التي واجهتها اللغةُ في الأقطارِ المفتوحةِ، على مستوى الجملة والكلمات والأصوات، وفشوّ ظاهرةِ اللحنِ ومصادرِه وشمولِه. فقد قادتِ الفتوحُ إلى الاختلاط، والاختلاطُ بدوره أدّى إلى اللحنِ، واللحنُ كان وراء نشأةِ علمِ النحو عصمةً لكتاب الله أن يضِلّ به قارئه، وتقويمًا للألسنةِ أن تنحرفَ عن سلائقها في التصريفِ الإعرابيّ. إنّ علاقةَ القرآن بالعربيِّة من خلال النحو عَلاقةٌ جدليُّة متبادلة: نشأ النحوُ لخدمةِ القرآن، واستخدمَ النحاةُ من بعدُ آيَ القرآنِ أدلَّة على قواعدِهم النحْويّة، وحَفِظَ النحوُ اللغةَ العربيَّة من التشظّي.

واليوم: لولا الفصحى لغةُ القرآن وتاليًا لغةُ الأدبِ شعرِه ونثرِه، لما أمكن العرب في الأقطار المختلفةِ أن يتفاهموا في ما بينهم، وكما واجهتِ اللغةُ العربيُّة التحدِّيات العاصفةَ بعدَ خروجها من الجزيرةِ العربيِّة بإمكانها مواجهةُ المخاطرِ التي تتعرّض لها في هذه المرحلة، إن تضافرت جهودُ القيِّمين عليها، واتُّخِذت خطواتٌ عمليُّة في هذا السبيل.

الكلمات المفتاحيّة: القرآن، المظهر البياني للغة العربيّة، الوحدة اللغويّة، اللحن، علم النحو، التصريف الإعرابيّ، البلاغة...

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

العلّام العليم، معلّمِ البشرِ الأسماءَ كلَّها.

ما اللغة؟ وهل اللغةُ إلّا كينونةٌ لامرئيَّةٌ متُّصلة بعُرًى لا تنفصمُ بالإنسانِ المجريها على لسانه يُعبِّرُ بها، وهي تُعبِّرُ عنه، عن كلِّ ما يتُّصل به من شؤونٍ وشجون، هي ضيُّقة الآفاقِ إنْ كان هو كذلك، ورحبةٌ إنْ رَحُبَتْ آفاقُه هو، فقيرةٌ ساذجةٌ إنْ كان محدودَ الثقافةِ، أو هي على العكسِ من ذلك غنيَّةٌ قادرةٌ على التعبيرِ عنِ الظواهرِ والبواطنِ في الوقتِ عينِه.. حالُها دائمًا من حالِ أصحابِها حَيَّةٌ أو مَيْتَةٌ، متطوِّرةٌ أو متخلِّفة، غالبةٌ أو مغلوبةٌ، منتهِكَةٌ أو منتهَكة...

حال اللغة العربيّة

وهذه اللغةُ العربيُّة التي تؤرِّقُنا حالُها، كانتْ منذُ أربعةَ عشرَ قرنًا ونصفِ القرنِ قبلَ نزولِ القرآنِ وقبلَ تدوينِه ونَقْطِهِ وإعجامِهِ كأخواتِها الساميَّاتِ الأُخَرَ محدودةَ الأفقِ محصورةً داخلَ مِنطَقَةٍ جغرافيِّة محدودةٍ لا تتعدّى حدودَ الجزيرةِ واليمنِ، وكانتْ شفويَّةً حتى المدوُّن منها؛ بمعنى أنَّنا إنِ افترضْنا صِحَّةَ الروايةِ القائلةِ إنّ القصائدَ الجاهليَّة المسمّاة "معلّقات" كانت مكتوبةً ومعلَّقةً على أستارِ الكعبةِ، مما لا ريبَ فيه أنَّ قراءتها قراءةً صحيحةً لم تكن متاحةً إلّا للرواةِ الذين يحفظونها غيبًا، ذلك أنّ العربيَّة كانت في تلك الآونةِ كالآراميِّة من دونِ نقاطٍ ومن دونِ حركاتٍ، وشاءَ العليُّ الأعلى أنْ يكون خاتَمُ رُسُلِهِ عربيَّ اللغةِ، وبين ليلةٍ وثلاثٍ وعشرين سنةً نالتِ العربيَّةُ شرف حملِ آخر الرسالاتِ السماويِّة، متمثَّلةً بهذا **المظهرِ البيانيِّ**: **القرآن** الذي أعجز العرب وحلَّ في نفوسهم محلَّ السحر.

يجيب القرآن عن أسئلةِ الوجودِ والأخلاق والمصير بشكلٍ جماليٍّ فنّيٍّ، وكتابةٍ فاجأتِ العربَ بحيث أجمعوا سواء منهم في ذلك من شرح الله صدرَه للإسلام، ومن جعلَ على بصرِه غِشاوةً على أنّها فريدةٌ لم يَرَوا مثلَها، وعلى أنّها لا تُضاهى، قال الكافرون عنها إنّها سحرٌ، وإنّها شعر. في الراويةِ أنّ الخليفةَ الثاني عُمَرَ (رض) آمن بالإسلامِ من طريقِ سماعِهِ... والوليدُ بنُ المغيرةِ أحدُ سادةِ قريشٍ، قال لقريشٍ لمَّا سمع بعضًا من القرآن: "فوالله ماذا أقول فيه؟ ما منكم رجلٌ أعلمُ منّي بالشِعرِ ولا برجزِه، ولا بقصيدِهِ، ولا بأشعارِ الجنِّ، والله ما يُشبه الذي يقولُه شيئًا من هذا، والله! إنّ لقولِه لحَلاوةً، وإنَّ عليه لطَلاوةً، وإنّه ليحطِّمُ ما تحته، وإنَّه لَيعلو وما يُعلى"... ثم يقول: ما هو إلّا سحرٌ يؤثرُ، أما رأيتموه يفرّق بين الرجلِ وأهلِهِ ومواليه؟ "[1]، لقد كان شكلُ التعبير في النصِّ القرآنيِّ العاملَ الحاسمَ في الاستجابةِ لمضمونِه التعليميِّ، يومَ لم يكن لمحمَّدٍ (ص) حولٌ ولا طولٌ، ويوم لم يكنْ للإسلامِ قوَّةٌ ولا مِنعة، "كأنَّ اللغةَ هي التي فَتحتِ الأبوابَ لدينٍ جديدٍ هو الإسلام".

إنَّ نفيَ القرآن عن نفسه صفةَ **الشعر** ونفيَه عن النبيّ صفةَ**الشاعر**[2]، لا بُدَّ أن يُفهم في ضوءِ الصراع الذي دارَ بين الثقافةِ الجديدةِ، ومثيلتِها القديمةِ، فقد كان الشعرُ هو النصُّ الثقافيُّ المهيمنُ في ثقافة العرب ما قبل الإسلام، وباتَ القرآنُ هو النصُّ الذي يتدارسونَه - على ما كان من قراءاتِه ولهجاتِه – ويسمعونه ويتواردُ عليهم في أحاديثهم وخطبِهم وصلواتِهم وعبادتِهم في ليلِهم ونهارِهم، لأنّه كان مظهرَ الإعجازِ، ولأنَّه كان هو الذي بلورَ دعوتَهم وصوَّر فكرتَهم، ومثَّل للحياة التي أقبلوا عليها في الدنيا والآخرة، لم يستطِعِ العربُ أنْ يحاكوه أيَّام النبيِّ ولا بعدَه، لقد أعجزهم **نَظْمُهُ**، أيْ أسلوبُه في أداءِ المعاني التي أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ تؤدّى إلى الناس "لم يؤدِّ هذه المعاني شعرًا، ولم يؤَدِّها إليهم نثرًا، وإنّما أدّاها على مذهبٍ مقصورٍ عليه، وفي أسلوبٍ خاصٍّ به لم يُسبقْ إليه ولم يُلحق فيه"[3].

ما الذي فعلَه القرآن باللغة؟

---

[1] سيرة ابن هشام، ج1، ص 174-175.

[2] سور: النبأ، الآية 69؛ الأنبياء، الآية 5، الحاقّة، الآيات من 40 إلى 43.

[3] طَه حسين، **المجموعة الكاملة**، ج7، ص 242-243.

نزل القرآنُ بلغةِ قريشٍ أو بلهجةِ قريش[4]، وكان على المسلمين منذ اللحظاتِ الأولى أنْ يدوّنوا آياتِه، وأن يحفظوها، ويفهموا معانيها وهكذا:

1.حولّ القرآنُ الثقافةَ من المرحلةِ الشفويّة إلى مرحلةِ التدوين، يكفي أنْ نتذكَّر هنا أنَّ النبيَّ (ص) كان يجعل فديةَ الأسيرِ من أهلِ مكَّة أن يُعلِّم عشرةً من المسلمين القراءةَ والكتابةَ حرصًا منه على تدوينِ النصِّ القرآنيِّ، ممّا أدّى إلى إحداثِ تغييرٍ نوعيٍّ في الثقافةِ، وهكذا يصبحُ النصُّ القرآنيُّ **[الكتابُ]** أوَّل نصٍّ يُكتبُ باللغة العربيَّةِ - باستثناءِ المعلّقات إذا صدقتِ الروايةُ – ويتحوُّل العربُ إلى قارئين وكاتبين للنصِّ القرآنيِّ، وصارَ هذا النصُّ على ألسنةِ الناسِ في كلِّ ساعاتِ النهارِ لا يغادرُهم أو لا يكادُ إلّا في أثناءِ نومِهم، وهذا أمرٌ خاصٌّ في حياةِ الجماعةِ المسلمة لا مثيلَ له أو شبيهَ في غيرِها من الجماعاتِ أو الشعوبِ على ظهر البسيطةِ.

2.الوحدة اللغويّة: ولمّا كان التقاءُ هؤلاءِ العربِ جميعًا في جيوشِ الدعوةِ وانطلاقِهم بها، وممارستِهم لهذه الحياةِ الدينيَّةِ في نطاقِ **لغةِ القرآن** كان أوَّل ما أصابَ اللغةَ العربيَّةَ هو هذه **التصفيةُ** التي كسرتْ من حدِّة اللهجاتِ المختلفةِ أو قصَّرتْ من استطالتِها، فالمشاركةُ في الأغراضِ والأهدافِ والوسائلِ انعكست مشاركةً في **اللغة** التي تُمثّل كلّ هذه الأغراض، وتعبُّر عن كلِّ هذه الوسائل. لقد تناولتْ هذه التصفيةُ شيئين اثنين: **أحدها**: أنَّها كفكفت من قوِّة اللهجات في خلافِها... فلم يُعدْ أحدٌ متمسَّكا بلهجةِ قبيلته، وإنّما يحاول أن يقتربَ من لغة القرآن شيئًا فشيئًا، **والثاني** أنَّ هذه التصفيةَ جمعت ما بين مفردات القبائلِ، فلم يكنْ من شأنِها أنْ تنسخَ هذه المفرداتِ ولا أنْ تُميتَها، وإنّما أشاعتْ فيها حياةً أخصبَ من حياتِها الأولى حيثُ مدّت من سلطانها (مثلًا: كانت لفظةُ المِديَةِ وحدَها عند قبيلةٍ، ولفظةُ السكِّين وحدَها عند قبيلة أخرى، أمَّا بعد اللقاء فمن الواضحِ أنَّ هؤلاءِ وأولئكَ تبادلوا هذين اللفظين واستعملوهما معًا حيث كانوا يستعملونَ واحدًا منهما فحسب)... وكان كذلك شأنُ أكثرِ الألفاظِ الأخرى التي كانتْ تخالفُ فيها القبيلةُ القبيلةَ والناحيةُ الناحيةَ. ولم يكنْ الأمرُ كَثرةَ المفردات فحسب، ولكنّه كان كذلك كَثرةَ الصيغ: فالقبائلُ التي تعوَّدتْ أنْ تنطقَ الاسم أو الفعلَ على غيرالصورةِ التي كانتْ تعوّدتْ أنْ تنطقَ به قبائلُ أخرى، وجدتْ أنَّها هنا، في هذا الالتقاءِ والتّجمّع تتبادلُ الصيَغَ، وتتناوبُها... كانت تعرفُ مثلًا وزنًا واحدًا لفعل حسب، فوجدَتْ أنّها أمامَ وزنٍ آخرَ له، ولا نزاعَ في أنّها أخذت بهذا الوزنِ في شيءٍ من التدرّج، وأتاحتْ له منْ لسانِها طواعيَةً

---

[4] كانت لهجة قريش قد صارت قُبيلَ الإسلام اللغة العربيّة الموحّدة، راجع: شكري فيصل، **المجتمعات الإسلاميّة** ص 22 وما بعدها.

ورضىً. واتخذتْ حركةُ التصفيةِ هنا مظهرًا آخرَ يتمثَّل في هذه الوَفرة من المفرداتِ والصيَغِ، فهي ليستْ وفرةً فحسب ولكنَّها لونٌ من الوَفرةِ لا يُناقضُ الوجهة التي تمضي بها اللغةُ إلى الوحدة: **تمضي اللغة باتجاه الوحدةِ وفي الوقتِ نفسِه تغتني بالمفرداتِ والصيغ**، وذلك أيضًا لونٌ من التكثُّر والاستزادة[5].

3. اتساعُ أغراض اللغةِ وتهذيبُ ألفاظِها وفوقَ ذلك وقبله كان **القرآن** قد حملَ اللغةَ من إطارها الضيّق إلى مجالٍ أرحبَ، فقد كانت قبل نزول القرآن – كما عَرَفناها من خلالِ الشعرِ الجاهليِّ والخطبِ والحِكَمِ التي وصلتنا – لا تعدو أغراضَ المعيشةِ البدويِّة ووصفَ مرافقِها وإثارةَ الخصوماتِ والمنازعاتِ بين قبائلِها فأخذت تُستعملُ في:

أ) تبيين العقائد الدينيِّة التي جاء بها الإسلام: من إثبات وجودِ الخالق، وتوحيدِ ذاتِه وتقديسِه، ومن الإيمان بالبعثِ والنشورِ والثوابِ والعقابِ وغيرِ ذلك، مما لم يكن يفقه بعضَه إلّا بعضُ خاصّة الجاهليِّة، وأصبحَ بعدَ الإسلام وبعد الفتوحِ الشغلَ الشاغلَ للأمّة الإسلاميِّة جمعاء...

ب) اتسعت أغراضُ اللغة بعد ذلك، بسببِ حثِّ القرآنِ الناسَ على العلمِ والتفقِّه في الدين، إلى تبيينِ الشريعةِ واستنباط الأحكامِ الملائمةِ لأحوالِ الزمانِ والمكانِ، ولحسنِ معيشةِ المرءِ ومعاملتِه للحكّام... وفي ضبط أمورِ الملك ونظامِ العمرانِ، وما تستدعيه مرافقُ أهلِ الحضرِ والأمصارِ، وفي وضع مبادئ العلوم في الحقبة العباسيّة...

ج) بمحاكاةِ ألفاظ القرآنِ الكريمِ والسنَّةِ الشريفةِ تمَّ تهذيبُ ألفاظ اللغة ومجانبةُ حوشيِّ الالفاظِ الذي ينبو عن السمع، ويمجُّهُ الذوقُ السليم، واغتنتِ اللُّغة **بالألفاظِ الإسلاميِّة المحضة** مثل: المصحف، والفرقان والجاهليّة وغيرها.

د) توسَّعتْ **دلالةُ الألفاظ**، بإخراجها من معنًى إلى معنًى بينه وبين الأوّل مناسبةٌ: مثل الصلاة والصيّام والزكاة والمؤمن والكافر والفاسق والمنافق، والوحي والشرع والسنّة والإسلام والقرآن...

هـ) **ماتتْ ألفاظٌ:** منع الشارعُ استخدامَها كالمرباعِ والنشيطةِ والفضولِ، وصرورةٍ، وعِمْ صباحًا وعِمْ ظلامًا، والكثيرِ من الألفاظِ التي وردتْ في بعضِ الشعرِ الجاهليّ...

---

[5] راجع: **مجالس ثعلب** في تفسيرِ هذه اللهجات والتمثيل لها، ج1، ص100 و109 و141؛ أيضًا **المزهر** للسيوطي، ج1، ص 221 وما بعدها.

و) اغتنتِ اللغةُ **بدخولِ ألفاظٍ أعجميَّةٍ**، استُخدمت في النصّ القرآنيِّ وعُرِّبتْ: مثل سندس واستبرق والديباج والرقيم وأوّاه، وحنانيا والأسفار، وغير ذلك؛ وورود هذه الألفاظِ في النصّ القرآنيّ، هو الذي جعل المسلمين في ما بعد في العصر العبّاسيّ، حين بدأتْ **عمليَّةُ الترجمةِ** يقومون بتعريب الألفاظ اليونانيِّة والفارسيِّة من دون أدنى حرج أو تعقيدٍ، كالذي أصابهم في القرنين التاسع عشر والعشرين، وهم يواجهون المصطلحات العلميّة والتقنيّة الأجنبيّة.

4.انتشارُ اللغةِ وذيوعُها: التعريبُ الذي رافقَ حركةَ الفتوح.

إنّ التداخلَ الهائلَ الذي حّققتْه حركةُ الفتوحِ حينَ جمعتْ بين الأفرادِ من كلِّ قبيلةٍ وناحية،ومن كلِّ شِعبٍ وصِقع،**الحاملينَ القرآنَ إلى الأمم**،أثَّر بعمقٍ في تقاربِ اللهجاتِ وفي توحّدها، وصياغةِ لغةٍ مشتركةٍ مهذَّبة قريبةٍ من لغة القرآن،فضلاً عن امتناعِ قرِّاء القرآنِ أو منعِهم من أدخالِ خصائصِ ألسنتهم في قراءةِ القرآن[6]...

خرج العرب من جزيرتهم إلى ما حولها من الضواحي، ولقوا عَرَبَ الضاحيةِ في الشام والعراق، ولقوا الفرسَ هنا والرومَ هناك، والأقباطَ والبربرَ هنالك، وهاجروا إلى هذه المناطقِ وهاجرت معهم لغتُهم، ونَزَلوا في هذه المواطنِ ونَزَلَت معهم لغتُهم، وكان من الطبيعيِّ أن لا تظلَّ اللغةُ بعدَ هذا التجوالِ البعيدِ والأوساطِ الاجتماعيَّةِ والعرقيِّة المختلفةِ مثلَ ما كانت عليه حين خرجتْ من الجزيرةِ، فقد شهِدَتْ أقاليمَ وعَبَّرتْ عن مظاهرَ، وقصَّتْ أعمالًا وأحداثًا، واعتنَتْ بألوانٍ ومشاهدَ، وأصابتْ من ذلك كلِّهِ حظًّا من التطوِّر اللغويِّ الكمّيِّ، وحظًّا من التطوِّر اللغويِّ الكيفيّ.

لقد تأثَّرتِ الحياةُ اللغويُّة بالفتوح من نَحْوَيْنِ اثنين: أمّا **أحدُهما** فانتشارُ هذه اللغةِ على ألسنةِ الناسِ في الأقطارِ التي أظلَّها الإسلام، وأمّا **الثاني** فذلك هو الحديث عمّا أصابَ هذه اللغةَ وما طرأ عليها من تطوير، وما خضعتْ له من مواضعاتٍ بعدَ أنْ غادرَتْ مستقرَّها في الجزيرةِ وما حولَ الجزيرةِ إلى هذه الأقطارِ الفسيحةِ، التي انسابت فيها وانبعثَتْ من جوانبِها أصداؤها، وما كان لهذا الصدى في النفوسِ والبيئاتِ من رنينٍ وترجيع: وبمعنًى آخرَ نستطيعُ أنْ نتبيَّنَ **الفتحَ اللغويَّ** من حيثُ سعةُ اللغةِ وجَرَيانُها على ألسنةِ الناسِ من نحو، وما أصابَها على ألسنةِ هؤلاءِ الناسِ من نحوٍ آخر.

---

[6] راجع: **المجتمعات الإسلامية**، من ص 239 إلى ص 246.

لقد جاء التعريبُ نتيجةً طبيعيَّةً لاعتناق ِالإسلام، فقد كان على من أسلموا في هذه الأقطار أنْ يتعلّموا العربيَّة ليقرأوا **القرآن**، ويفهموا أحكامَه ويطّبّقوا تعاليمَه، وقد فعلوا ذلك بحماسٍ منقطع النظيرِ، كما تُبيّن لنا الرواياتُ التاريخيُّة المتعلُّقة بالفتوحات... لقد استطاعتِ العربيُّة أنْ تسودَ حيثُ كانت تنتشرُ اللغاتُ الساميّة التي تقاربُها:

في **الشام**[7] كان ظَفَرُ جيوش المسلمين وتمكّنها من غلبة الروم ، إيقاظًا للقرابةِ القديمةِ التي تصلُ بين عربِ الجزيرةِ والقبائلِ العربيِّة النازلةِ في الشامِ، التي كانت تتكلَّم العربيَّةَ مع بعضِ التغييرِ الذي يصيبُ اللغةَ حين تبتعدُ عن الموطنِ وتجاورُ الغريب.... لم تكن لغةُ الفاتحين العربيُّة نابيةً الوقعِ في مسامعِ الأكثريَّةِ العربيِّة الجذور، كذلك لم تكنْ نابيةً في مسامع الآراميّين، فالعربيُّة والآراميَّةُ من أسرةٍ واحدةٍ، متشابهتان في قواعدِ الصرفِ والتنظيمِ والاشتقاقِ، ممَّا عجَّل عمليَّة التعريب... أمَّا اليونانيّةُ فقد كانت لغةَ الدواوين، وبعضِ المترفين المتهلينين، فلم تستطع البقاء طويلًا.

في **العراق**[8] لم يقتضِ المسلمين الكثيرُ من العَناء لينشروا لغتَهم، ففي جوانبِ أنهارِه وعلى أراضيه وسهولِه في ما بين النهرين في الجَنوبِ وفي الجزيرة العليا في الشمال ، كانت تنزل القبائلُ العربيَّةُ في الجاهليِّة، وكانتْ لغتُها العربيُّة نقيَّةً بالقدرِ الذي يسمحُ به التجاورُ مع الفرسِ والإختلاطُ بهمْ، وكان قيامُ دولةِ المناذرةِ العربِ في الحِيرةِ وما حولها تمكينًا لمظاهرِ الحياةِ العربيّة: كان يفدُ على ملوك الحيرةِ كما كان يفدُ على ملوك غسّان في الشام الشعراءُ، وكان ينزلُ بهمُ التُّجُّار، وكانت تصل بينهم روابطُ الدم، والعهودُ والأحلافُ... ومن الطبيعيِّ أنْ تكونَ هذه الصلاتُ عاملًا أساسيًّا من العواملِ التي حافظت على اللغةِ العربيّة...

لكنْ في المناطق التي كان يكثرُ فيها الفرسُ أو يسودون، كانت اللغة السائدة هي **البهلويُّة** لغةُ الفرسِ في القرن السابع الميلاديّ، وهي من الأسرة اللغويّة الهندو-أوروبيّة، ولا تمتُّ الى العربيّة بنسبٍ أو صلة. مع ذلك فإنّ الذين أسلموا منْ غير العرب تعلّموا العربيَّةَ لأنّها لغةُ**القرآن**... وقد رافق السبيُ الفتوحَ في العراق وفارس، وقد كان السبيُ بعضَ الطريقِ لتعريبِ هذه المناطق، ومثلُه الزواجُ بالكتابيّات الفارسيّات.

---

[7] **المجتمعات الإسلامية**، ص 243.

[8] م.ن، ص 69-71.

في **مصرَ**[9] كان **انتشار العربيّة** عسيرًا بعضَ الشيء، فليس بينها وبين اللغةِ اليونانيِّة - التي كانت تسودُ الإدارةَ والحكمَ والطبقاتِ المثقَّفَةَ، كما كانت لغةَ العبادةِ في الكنائسِ المصريِّة نفسِها - صلةٌ ما... وكذلك الأمرُ بالنسبةِ إلى اللغةِ القبطيِّة: اللغةُ اليوميَّةُ لعامَّة الشّعب المصريِّ من الأقباط، ليس بينها وبين العربيّة أيُّ صلة... وما من شكٍّ أنّ انتشارَ الإسلامِ ساعدَ، ولكنْ ببطءٍ، على انتشارِ العربيِّة: فالذين يُسلِمون يتعلَّمونَ العربيَّة... وقد نشأتْ لغةٌ شعبيّة مبسَّطةٌ - حقّقتْ بالتدريج الاتصالَ بين العربِ وسكّان البلادِ الأصليّين، وأخذَت سبيلَها إلى الاتساعِ والدِّقةِ شيئًا فشيئًا مع ازديادِ الصلاتِ، ومع انتشار الدين. وهنالك ما يدلّ على انتشار اللغة العربيّة في مظهرين[01]:

أ) في مظهرٍ من لغةِ التخاطبِ والحديثِ من طريقِ اللغةِ الشعبيِّة التي تبدأ سقيمةً ثمَّ تحاولُ أنْ تكونَ مستقيمةً

ب) في مظهرٍ من لغةِ الكتابةِ التي يتعاون عليها **القرآنُ الكريمُ** والدينُ وضروراتُ الإدارة، والتي تُحاولُ أنْ تكونَ سليمةً قدْرَ ما يستطيعُ المسلمونَ الجدُد أنْ يؤدّوا اللغةَ التي يتعلَّمونها حقّها من السلامةِ والصِّحَّة... ولقد مضت اللغةُ العربيَّة في **مصرَ** بعد ذلك قِدْمًا ... أصبحت لغةَ المصريين في الدينِ والثقافةِ والإدارةِ وفي العملِ والبيت، وخلَّفتِ القبطيَّة في جزر صغيرةٍ منعزلة، لغةً تاريخيَّةً لا تتصلُ بالحياةِ من قريبٍ أو بعيد[11].

وفي **المَغرب**، عشيَّة الفتحِ[21] كانت تسودُ لغاتٌ ثلاث:

أ) **اليونانيُّة**، لغةُ الطبقةِ الحاكمة من الروم البيزنطيّين، ولغةُ الإدارةِ والسياسية...

ب) لغة سكّان المدن الأفارقة، التي هي خليطٌ من اليونانيِّة واللاتينيِّة ومن الساميَّةِ **الفينقيّة** (لغة قرطاجة)...

ج) **لغةُ البربر:** في المناطق الداخليّة. وكما أنَّ فتحَ أفريقيا تأخَّر حتى زمان عبد الملك بن مروان وما بعده، كذلك تأخَّر انتشارُ العربيِّة: حَلَّت أولًا محلَّ اليونانيِّة في الدواوين،

---

[9] م.ن، ص 75 وما بعدها و ص 107.

[10] للاطلاع على فتح مصر، راجع ابن عبد الحكم، **فتوح مصر وأخبارها**، نشرة ماسيه ص 75 وما بعدها، والمجتمعات الاسلاميّة، ص 118 وما بعدها؛ جروهمان، **محاضرات عن الأوراق البرديّة العربيّة** المحاضرة الثانية.

[11] **المجتمعات الإسلاميّة**، م. س.ص 159 – 160.

[12] راجع فتوح المَغرب في **البيان المُغرب**لإبن عذاري من ص 11 إلى ص 51.

ثمَّ تغلَّبت تدريجيًّا على لغةِ السكّان في المدنِ بسبب الإسلام وبسبب القرابة بين العربيّة والفينيقيّة: أما البربريَّةُ فقدِ استمرّت لأنّها اللغةُ الأمّ، ولعزلةِ البربر النسبيّة[31].

الخلاصةُ في ما يتعلق بانتشار العربيّة في الأقطار المفتوحة، أنّ التعريبَ اللغويَّ في هذه الأقطار جاء نتيجةً طبيعيَّة لاعتناقِ الإسلام؛ وسيظلُّ دائمًا بين اعتناقِ الإسلامِ الحقِّ وبين التقرّب من العربيّة هذا المجازُ القريبُ الذي يندفعُ فيه المسلمون. لقد حملَ الإسلامُ اللغةُ العربيَّة على جَناحيْهِ ونفحَها من **قدسيَّتِهِ**، فاقترنتْ في أذهانِ المؤمنين في هذه المناطق، ولا تزالُ، بهذه الهالةِ من التقديسِ والإكبارِ، ولا يزالُ أثرُ ذلك في ما يصف به العربُ وغيرُ العربِ العربيَّةَ حين يقولون: **العربيّة الشريفة**. لقد كان جزءًا من إيمانِ الجماعةِ المسلمةِ أنْ تحافظَ على ما كان الدينُ يعتمد عليه من الفنِّ القوليِّ المتمثِّل **بآي القرآن** ، سواءً في لغتِه أو في قواعدِه أو أساليبِه. من هنا اكتسبتِ اللغةُ العربيُّة هذه الحصانةُ التي كانت تحولُ بينها وبين أنْ تذوبَ أو تتشعَّب كما حصلَ للّاتينيّة مثلًا... صَمَدَت ٰولا تزالُ تصمدُ للتيّارات اللغويةِ المختلفةِ، فلا تسمح لها أن تَجَاوزَ لغةَ الحديثِ اليوميَّة... فإذا جاء دورُ الأدبِ، كانتْ لغةُ الدينِ كما حفظها **القرآن** هي الصورةُ المثلى التي يمضي الأدباء في نورها، ويحتذيها الكتّاب والمؤلّفون، ويكتبُ بها العلماءُ والفلاسفةُ ذوو الأصولِ غيرِ العربيِّة نتاجَهم، كما نلاحظُ في المؤلّفات التي وصلتنا من العصر العبّاسيِّ وما بعده.

آثارالاختلاط في الاقطار المفتوحةِ في التطوُّراللغويّ:

1.نشأةُ لغة ِالتفاهم: إن لغةَ التفاهم هي أولُ ما نشأ من عّلاقات لغويَّةٍ في البلادِ المفتوحةِ، ولنا أن نتصوّرأنّ السكّان الأصليين في تلك البلدانِ كانوا يصوغون العربيَّة في نطاقٍ من عاداتِهم **الصوتيةِ**، لأنّ أعضاءَ النطقِ عندهم،لا تسمحُ لهم أنْ يغادروا هذه العاداتِ مغادرةً سريعةً مفاجئة..كما أنهم اختاروا **أبسطَ الكلماتِ** في النطق، وأقلَّها ازدحامًا بالحروفِ العربيِّة الخالصةِ، وأكثرَها دَرْجاً على الألسنة..وصاغوا **العباراتِ** في قالَبٍ من لغتِهم،وتخلّوا عن حركات الإعراب لأنّ اليونانيَّة والفارسيَّةَ، اللتين حلَّت العربيَّةُ محلَّهما، كانتا قد تخلَّتا عن التصريفِ الإعرابيّ، وعن هذه **اللغة الدارجة** "التي أخذت كما يبدو بعضَ الخصائصِ المحلِّيَّةِ في المدنِ المختلفةِ، نشأتِ اللهجاتُ المتأخُّرة في المدنِ الأسلاميّة"، كما يقول فوك[41].

13() **المجتمعات الإسلاميّة**، ص 180- 185.

14() فوك، **العربيّة**، ص 13.

فضلاً عن نشأةِ لغةِ التفاهُم تأثَرتِ العربيُّة نفسُها بهذا الاختلاطِ، وانحرفتِ الألسنةُ بها، وخرجتْ عن قواعِدِها، وفسدتْ بعضُ عاداتِها الكلاميّة، مما نستطيع أن نجمعَه في ظاهرةٍ واحدةٍ هي **فشوّ اللحن،**

2.فشوّ اللحن: ومن مظاهرِ **اللحن** على الألسنةِ العربيِّة الأصيلةِ **إسقاطُ حركات الإعراب وتركُ التصريفِ** ، ولم يقتصرِ الأمرُ على إهمالِ الإعراب ، ولكنَّه تعدّى ذلك الى إقامتِهِ إقامةً خاطئةً ، فقد كان لا بدَّ أمام مظاهرِ الانحلالِ التي تغزو العربيَّةَ أن يتنبَّه الحريصون من العرب الى ان يلتزموا الأداءَ اللغويَّ الصحيحَ في أتمِّ مظاهره وأكملِ صورهِ[51]، غير أنَّه لا منجى لهم في جوٍّ يوشك أنْ يكونَ مشحوناً بالصراعِ اللغويِّ والتفاعلاتِ الكلاميَّةِ ، من أنْ يخطئوا أحياناً وأنْ يغيبَ عنهمُ الصوابُ أحياناً أخرى، وقد خلّفتْ لنا الرواياتُ اللغويَّةُ كَثرةً من نماذج **الخطأ في الإعراب** على لسانِ العربِ الأقحاح أنفسهم[61]، وتبدّى **اللحنُ** في اللغةِ العربيِّة في مظهرٍ آخرَ، في **استعمالِ الألفاظِ العربيِّة في غيرِ ما هي موضوعةٌ له أو مقصورةٌ عليهِ،** والغفلةِ عن الكلمةِ الأصليِّة التي لا يصلُح غيرُها في مكانِها من الأداء. ومظهرٌ ثالثٌ من مظاهرِ اللحنِ كان يتبدّى في **انحرافِ بعضِ الأصواتِ العربيَّةِ،** والحيدةِ بها عن مخارِجِها التي تجبُ لها، إذ إنَّ لكلِّ حرفٍ مخرَجَهُ ، ولكنَّ هذا التمازجَ اللغويَّ بما رافقه من تشابكِ الأجناسِ وسيطرةِ الإماءِ على البيوتِ ِ[كثرَةُ السبيِ]، لم يمكِّنِ الجيلَ الثاني من العربِ، الذي نشأ في هذه الأوساطِ الجديدةِ أن ينطقَ لغتَه نطقًا صحيحًا، ويعطينا **الجاحظُ**[71] أمثلةً كثيرةً عن أبناءِ البيوتاتِ العربيَّةِ نفسِها من الجيلِ الثاني من أبناءِ الإماء الذين كانوا ينطقون كأمهاتهم أو كالجواري اللواتي ربَّيْنَهن **الحاءَ** هاءً و**العينَ** همزةً، والذالَ والظاه والضاد زايًا، [كما هو حال بعض عامّيّاتنا اليوم]، وهذه الظاهرةُ ليست غريبةً في حياةِ اللغاتِ، ولا في حياتِنا اللغويِّة، لا سيَّما اليوم، حيث نلمح إنْ نحنُ رصدْنا مخارجَ الحروفِ في بعضِ البيئاتِ

15() لجاحظ، **البيان والتبيين،** ج2، ص218 : قصّة عيسى بن عمرَ النَّحويِّ الثقفيِّ حين خاصمَ رجلًا إلى هلال بن بردة فجعل يتتبُّع الإعراب، وغير ذلك من الأخبار...؛ الجُمَحيّ، **طبقات الشعراء،** ص6 ؛ السيرافيّ، **أخبار النحويّين البصريّين** ص 22، ابن الأنباريّ، **نزهة الألبّا،** ص 19-20.

16() مثّل الجاحظ على ذلك استخدام عبيد الله بن زياد عبارةَ "افتحوا سيوفَكم" بدلًا من "سلّوا سيوفَكم"، وقوله لأحد الأشخاص : إجلس على إستِ الأرضِ، فأجابه ما كنت أحسبُ أنّ للأرضِ إستًا: البيان و التبيين، ج2، ص210 و 211، ونجد أمثلة أخرى في **البديع** لعبد الله بن المعتز، ص23.

17() مثّل الجاحظ على ذلك استخدام عبيد الله بن زياد عبارةَ "افتحوا سيوفَكم" بدلًا من "سلّوا سيوفَكم"، وقوله لأحد الأشخاص : اِجلس على اِستِ الأرضِ، فأجابه ما كنت أحسبُ أنّ للأرضِ إستًا: البيان و التبيين، ج2، ص210 و 211، ونجد أمثلة أخرى في **البديع** لعبد الله بن المعتز، ص23. هنا تجدر المقارنة بين الأمس واليوم في ما يتعلّق بتولّي الخدم الأجانب أمرَ تربية الأطفال في الأسرِ العربيّة...

المدرسيّة. ففي كثيرٍ من المدارسِ الفرنسيَّةِ نسمع نطقَ الراءِ نطقًا قريبًا من الغينِ، ونطق القافِ نطقًا قريبًا من الكاف، فضلًا عن إهمالِ الكثيرِ منَ الحروفِ اللثويَّةِ والسكوتِ عنها، وهذه كلُّها صورٌ من تصارعِ اللهجاتِ، ومحاولتِها السيطرةَ على أعضاءِ النطقِ.

وتبدّى **اللحنُ** في اللغةِ العربيِّة في مظهرٍ آخرَ، في طغيانِ بعضِ الألفاظِ الفارسيَّةِ مثلًا منذ العصر الأمويِّ، وتفاقمَ الأمرُ في العصر العبّاسيّ، على مسمِّيات لها ما يقابلُها في العربيّة [كاستخدام العربِ اليومَ الألفاظ الإنجليزيَّة والفرنسيَّة يوشّحون بها كلامهم]، وكان ذلك أكثرَ ما يكونُ في حياةِ المدنِ، حيث يلتقي العربُ بالأقوامِ الأخرى لقاءً متّصلًا، ويُعطي **الجاحظُ** أمثلةً كثيرةً عن شيوع المسمّيات الفارسيِّة في المدينةِ والكوفةِ والبصرةِ وغيرِها[81]، على أنَّ أبرزَ مصادرِ اللحنِ إنّما ترجعُ إلى أنماطِ حياةِ الأسرِ العربيَّةَ، فقد خالطَ هذه الأسرَ في حياتها الداخليَّةِ كثيرٌ من العبيدِ الخدمِ ومن الجواري والإماءِ، كان لهم في تربيةِ الجيلِ وتنشئته أثرٌ ملحوظ، وكان من المتعذِّر أنْ ينشأَ هذا الجيلُ في هذه الظلالِ اللّغويِّة محتفظًا بصفاءِ لغتِه. في كلِّ الأحوالِ حيث كان الأختلاطُ بين العربِ وغيرِهم استتبع الأمرُ حتمًا وجودَ اللحنِ على هذه الصورةِ أو تلك، وعمَّتِ الموجةُ العربَ وغيرَ العربِ، القرويّين والمدنيّين على حدّ تعبير الجاحظ[91]، كما طالَ اللحنُ أيضًا الطبقاتِ العالمةَ.

توقّي اللحن

هذه الأخطار التي تعرضتْ لها العربيُّة، كانت جديرةً منذ العهودِ المبكِّرة الأولى أنْ تفتَّتها إلى لهجاتٍ متفارقةٍ كما أصاب اللّاتينيّة التي تحوّلت من بعدُ إلى لغاتٍ متباينة – لولا عاملُ الدين وبالتحديد لولا **القرآنُ الكريم**، لقد وقف الدين حارسًا جبَّارا يذودُ عن اللغةِ كلَّ عوادي الأجناسِ ونزواتِ الألسنِ وبغتاتِ الزمن، من **القرآنِ الكريم** اكتسبتِ اللغةُ العربيُّة الحصانةَ التي كانت تحولُ بينها و بين أنْ تذوبَ أو تتشعّب، فصمدتْ أمام التيّارات اللغويِّة المختلفةِ، ولم تسمحْ لها أن تُجاوزَ لغةَ الحديثِ اليوميِّة، فإذا جاء دور الأدبِ الرفيع ودورُ العلمِ والثقافةِ كانت لغةُ الدين كما حفظها القرآنُ هي الصورةُ المثلى

---

[18] راجع **المجتمعات الإسلاميّة**، ص 254 وما بعدها وص 270 و271.

[19] **البيان والتبيين**، ج1، ص20 وغيرها ... هذا الموضوع يتيح لنا إجراءَ بحثٍ مقارنٍ بين الدخيل في اللغة العربيّة منذ بدأ الإختلاطُ بين العربِ وغيرِهم من الشعوب لاسيّما في العصورِ العبّاسيّة وبين الحال اليوم في ظلِّ الهجومِ الكاسِح للغّات الأجنبيَّة، هنا تجدر المقارنة بين الأمس واليوم في ما يتعلّق بتولّي الخدم الأجانب أمرَ تربية الأطفال في الأسرِ العربيّة... يذكر الجاحظ أمثلةً كذلك تبيّن أنّ الباديةَ نفسها لم تكن عاصمًا من أمرِ اللحن: **البيان والتبيين**، ج1، ص73، 140، 163 و ج2، ص212، 213، 219، 220.

المحتذاة. لقد كان القرآنُ ولا يزال الدرعَ الواقي للّغة وملجأها حين تعصفُ بها الملاحنُ، **وبسبب القرآن ومن أجله** حين كاد اللحنُ أنْ يلامسَه، فكَّر القيّمون على الدين بوضع **علم النحو** الذي حفظ اللغة، وقدّم لها الوقايةَ اللازمة قبلَ أنْ يستفحلَ المرضُ. لذلك نلاحظُ أنّ أوَّل ما ميَّزَ النحوَ في نشأتِهِ الأولى، أنَّه كانَ محاولةً لحفظِ التصريفِ الإعرابيِّ وضبطِه، لأنَّ أوَّل ما أصابَ اللغةَ من انحرافٍ كان تركَ التصرفِ الإعرابيِّ أو الخطأَ فيه، أيْ أنّه كان حركةً موازيةً لانتشارِ اللحنِ في هذه الناحيةِ ومضادَّة لها، ومحاولةً لإنقاذِ التصرِّف الإعرابيِّ الذي يميُّز العربيَّة من بينِ اللغاتِ الأخرى..إنّ الرواياتِ على إختلافِها التي تقرنُ بين نشأةِ النحو وبين أبي الأسودِ الدوليّ مفادُها أنَّ ذلك الصنيعَ الأوَّل **كان عصمةً لكتابِ اللهِ أن يَضِلَّ فيه قارئه، وتقويمًا للألسنةِ** أنْ تنحرِفَ عن سلائِقِها في التصريفِ الإعرابيّ...ولم يبقَ عملُ أبي الأسودِ في رسم النحو ومقاومةِ اللحن عملًا وحيدًا، وإنّما أعقبته أعمالٌ أخرى جاءت من بعده مكمِّلةً لخطاه، واتّخذ النحو بعد ذلك طوابعَه الابديَّة التي شهدتها الأجيالُ بعده، والتي نشهدها نحن، وسيشهدها مَنْ بعدنا[02].. وأبرزُ الظواهر في حياةِ النحو بعد مراحله الأولى انّه جاوزَ مِنطقةَ القرآنِ الكريمِ إلى ذخائر العربيَّةِ الاولى، فأخذ يُعنى بصيانةِ هذا التراثِ والإفادةِ منه في إقامةِ قواعدِهِ واستخلاصِ شواهدِه.

إنّ **عَلاقةَ القرآنِ بالعربيّة** من خلالِ النحوِ عَلاقةٌ جدليَّة متبادلة، نشأ النحوُ لخدمةِ القرآن، واستخدم النحاةُ من بعدُ **آيَ القرآن** أدلَّةً على قواعدِهم النحْويِّة، وحَفِظَ النحوُ اللغةَ العربيَّة مِنَ التشظّي والاضمحلالِ، والتحوِّل إلى لغاتٍ لا رابط بينها ولا صِلَةَ إلّا الصلةَ التاريخيّة، وأبقاها لغة فصيحةً شريفةً جامعةً للعربِ كلِّهم على الرَّغم من تعدِّد عامّيِّاتهم، وجامعةً بينهم وبين **أهل القرآن** من غير العرب، وبواسطتها يمكنُهم تقريبُ عامّيِّاتهم من بعضها، والتسابقِ في ما بينهم، أيّهم يجعلُ لهجتَه أقربَ إلى الفصحى الشريفة.

القرآن وعلمُ البلاغة

خدمةٌ أخرى أدّاها عُلماءُ القرآنِ إلى اللّغة العربيّة، هي وضعُهم للعلمِ الذي سُمِّيَ من بعدُ **علمَ البلاغةِ**.

---

[20] للاطلاع على مراحلِ النحوِ الأولى راجع: ابن النديم، **الفهرس**، ص39 و 40؛ وابراهيم مصطفى، الجزء الثاني من المجلّد العاشر من كلّيّة الآداب، جامعة القاهرة... **وأخبار النحويّين البصريّين** ص 16 و 21 و 22؛ **وطبقات الشعراء** ص 6، و**الشعر والشعراء** ص 6 وما بعدها؛ فتحي عبد الفتّاح الدجني، **أبو الأسودِ الدؤَليّ ونشأة النحوِ العربيِّ**، ص41، أحمد أمين، **فجر الإسلام**، 179 – 183 **وضحى الإسلام**، ج2، ص 251 – 252.

اللافتُ أنّنا نلاحظُ أنّ الملاحظاتِ البلاغيَّة قد جاءت في ثنايا الكتبِ التي تدرس معانيَ القرآنِ ولغتَهُ، وتكثرُ هذه الإشاراتُ عند الفرّاء (المتوفّى سنة 207هـ) في كتابه **معاني القرآن** إذ عُنيَ فيه بشرحِ آيِ الذكرِ الحكيمِ شرحًا بَسَّطَ فيه الكلامَ على التراكيبِ وتأويلِ العباراتِ، وتحدَّث فيه عن التقديمِ والتأخيرِ في الألفاظ، والإيجازِ والإطنابِ، والمعاني التي تخرجُ إليها بعضُ الأدواتِ كأداةِ الاستفهامِ، كما أشارَ إلى بعضِ الصورِ البيانيِّة من مثل التشبيه والكناية والاستعارة[12]. نجدُ كذلك في كتاب **مجاز القرآن**[22] لأبي عبيدة معمرِ بن المثنى (المتوفّى سنة 208هـ)، أنّه اختارَ **الآياتِ التي تصوّر طرقًا مختلةً في الصياغةِ والدلالةِ، متمثّلًا بما يُشبهُها من أشعارِ العربِ وأساليبِهم، وشارحًا لما تتضمّنه من لفظٍ غريب، وأدّاه هذا الاختيار إلى أنْ يتحدَّث عمّا في الآياتِ من استعارةٍ وتشبيهٍ وكنايةٍ وتقديمٍ وتأخيرٍ وحذفٍ وتكرارٍ وإضمار. وتوسَّع في تصوير الخصائصِ التعبيريَّةِ كالدلالة بلفظ الخصوصِ على معنى العموم، وبلفظِ العمومِ على معنى الخصوص، وكمخاطبةِ الواحدِ مخاطبةَ الجميع، ومخاطبةِ الجميع مخاطبةَ الواحدِ، وتنبّه في ثنايا ذلك إلى الصورةِ العامّة للالتفات، وإنْ لم يقترِحْ لها اسمَها الاصطلاحيّ؛ وعلى هذه الشاكلة كان المعلّمون من اللغويّين والنحاة في تضاغيفِ كلامِهم وشروحهم لآي القرآن وتاليًا للشعر، يقدّمون ملاحظاتٍ مختلفةً على بلاغة الكلامِ وصورِهِ البيانيّة والتعبيريّة، بحيث يمكن أن يُقال إنّهم أدّوا حتى أوائل القرنِ الثالثِ الهجريِّ في هذا الصددِ خدمةً قيِّمةً بفضلِ نظراتِهم الفاحصةِ الدقيقة**[32]، ولعلَّ الجاحظَ **(ت 255 هـ) أوَّل من تكلَّمَ على بعضِ المباحثِ المتعلِّقةِ بالإعجاز في كتابه** نظم القرآن ، **الذي لم يصلنا، ولكنْ للجاحظِ نفسِه إشاراتٌ إلى هذا المصنَّفِ في كتابِه** الحيوان **إذْ يقولُ :"ولي كتابٌ جمعتُ فيه آيًا من القرآن لتعرِفَ بها ما بين الايجازِ والحذفِ، وبين الزوائدِ والفضولِ والاستعاراتِ، فإذا قرأتَها رأيتَ فضلَها في الإيجازِ والجمعِ للمعاني الكثيرةِ بالالفاظِ القليلةِ، منها قوله عزّ وجلّ حين وصف خمرِ أهلِ الَجَنِّة:" يُصَدَّعون عنها ولا ينزفون "، وهاتان الكلمتان جمعتا جميعَ عُيوبِ خمرِ أهلِ الدنيا. وقولهُ عزّ وجلّ حين ذكر فاكهة اهلِ الجنةّ: "لا مقطوعةٌ ولا ممنوعة" جمع بهاتين الكلمتين جميعِ تلك المعاني".**[42]

---

[21] شوقي ضيف، **البلاغة تطوّر وتاريخ**، ص32.

[22] أبو عبيدة، **مجاز القرآن**، ص 11.

[23] شوقي ضيف، م.س، ص 2.

[24] الجاحظ، **الحيوان**، ج 3، ص 86.

أمّا ابنُ قتيبةَ فانّه نَثَر جملةَ ملاحظاتِه البلاغيَّةِ في كتابِه تأويلُ مشكلِ القرآن[52]، **الذي صنَّفَهُ للردِّ على الملاحدةِ واشباهِهم الذين يطعنون على** القرآن الكريم، **عرضَ فيه صورًا قرآنيَّةً ممّا يدخلُ في المجازِ المرسلِ والاستعارةِ والتقديمِ والتأخير، وقد أفاضَ في تفسيرِ بعضِ آيِ الذكرِ الحكيمِ مصوًّرا وجوهًا من المجازِ والبيان. يأتي بعد ذلك كتاب** إعجاز القرآن **للباقلّاني (المتوفّى سنة 403ه)، يُبيِّن فيه أنَّ** معجزةَ القرآن **تقومُ على بلاغتِه، ويستشهد لذلك بآيٍ من الذكر الحكيم، ويُجمِلُ نظريَّتَهُ في الإعجاز القرآنيّ بلاغيًّا فيقول: "إنّه بديعُ النظم، عجيبُ التأليفِ، متناهٍ في البلاغةِ، إلى الحدِّ الذي يُعلَّمُ عَجزُ الخلقِ عنه"، ويتحدّث الباقلّانيّ عن كيفيَّةِ الوقوفِ على إعجازِ القرآنِ، ويقول إنّه** لا يقف عليه إلّا من عَرَفَ وجوهَ البلاغةِ العربيِّة وتكوّنت له فيها ملكةٌ يقيسُ بها الجودةَ والرداءة في الكلام.

أمَّا عبدُ القاهر بنُ محمّد الجرجانيّ (المتوفّى سنة 317ه) الفقيهُ الشافعيُّ والمتكلِّم الأشعريُّ، فهو واضعُ أصولِ علمِ البلاغةِ، إذا استطاع أن يضع نظريَّتَي علمَي المعاني والبيان وضعًا دقيقًا. الأولى في كتابه دلائل الإعجاز **والثانية في كتابه** أسرار البلاغة. **لقد كان عبد القاهر ذوَّاقة للأسلوبِ القرآنيّ، حتى أوشكَ أنْ يسبقَ عصرَه، في بعضِ لمحاتِه الموفّقة التي نفذ بها إلى إدراك الجمال الفنيِّ في كتاب الله[62].**

وإذا كانتِ اللمحاتُ الأولى لعلمِ البلاغةِ قد جاءتْ في ما كُتب عن الإعجاز القرآنيّ، **فإنّ مفسّري القرآن، بعد ذلك قد اعتمدوا على** علم البلاغة **لتبيانِ معاني القرآنِ الكريم ، فالزمخشريُّ المولود سنة 467 ه يقول في مقدّمة كتابه** الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، **أن لا أحد يمكنه أن يتصدّى لعلم التفسير إلّا "من برع في علمين مختصين بالقرآن هما علم المعاني وعلم البيان، وتمهّل في إرتيادها آونةً، وتعب في التنقير عنهما أزمنة. وقد طبّق الزمخشري علوم البلاغة التي قرّر قواعدها عبد القاهرالحرجاني على آي الذكر الحكيم. لقد وضع هذه القواعد مقرونةً بالمثال الذي يوضّحها ويكشف عن دقائقها... ولم يفعل من جاء بعد عبد القاهر والزمخشري إلّا إعادة درس ما وضَعاه، والتعبّد لما قالاه وأحكماه، فتحوَّل العلمان إلى قواعد جافَة تُطبّق تطبيقاً آليًّا(**

---

[25] ابن قتيبة، **تأويل مشكل القرآن**، ص 15.

[26] صبحي الصالح، **مباحث في علوم القرآن**، ص 313 -315.

الخلاصةُ أنّ علمَ النحو وعلمَ البلاغة اللذين ولدا لخدمة النص القرآنيّ، حفظا العربيَّة، ولا يزالان خادمين للّغة وتاليًا للنصّ القرآنيّ، وأيّ تحديثٍ وتطويرٍ لهذين العِلمينْ إنّما يؤدّي خدمةً جلّى لدارسي القرآن عربًا ومستعربين..